

خطبة في مقاصد الصيام

أيها الإخوة الكرام

كنا في الجمعة الماضية مع نصح للصائمين ونحن اليوم مع مقاصد الصيام.

إخوة الإيمان

احذروا التفريط في هذا الشهر العظيم، لأن أيامه معدودة، وساعاته محدودة، ولا تكن أخي المسلم الكريم من الذين جعلوا رمضان موسماً للهو واللعب والعصيان، فرمضان مضمار الصالحين يتسابقون فيه في فعل الخيرات وكسب الحسنات، وأكثروا فيه من قراءة القرآن، كان للشافعي رحمه الله في شهر رمضان ستون ختمة، واعلموا أن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها.

أيها الإخوة

خطبة اليوم عنوانها مقاصد الصيام، لأنَّ دين الإسلام دين مبني بعد إفراد الله بالعبادة على الحكمة والخير العميم، ولهذا لم يشرع سبحانه وتعالى أحكام هذا الدين دون فوائد مرجوة، ومقاصد جليلة، فإنَّ لهذه الشريعة الإسلامية تكاليف سامية المقاصد، نبيلة الفوائد، بديعة الأسرار، ومن هنا، فإنَّ الصوم شرع لمعانٍ سامقة، وحكم برّاقة، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: والمقصود: أنَّ مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة، شرعه الله لعباده رحمة بهم، وإحساناً إليهم، ورحمة لهم وجنته (زاد المعاد: 2-30)

فمن المعلوم بدهاء أن العبادات شرعت لأغراض وأهداف ومقاصد معينة، وهوما بينه القرآن في شأن كثير من العبادات خاصة الأركان منها، وإدراك هذه المقاصد له أهمية كبيرة خاصة في أداء العبادات، حيث يعرف المرء مستوى العبادة التي يقوم بها، فمثلا الصلاة التي قال فيها رب العزة: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أي من مقاصد الصلاة أنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، إذا لم تتحقق هذه الغاية وهي نهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، فهذا يدل على أنها لا تؤدى بالشكل الصحيح، ومن ثم يجب مراجعتها.

قيل يا رسول الله إنَّ فلاناً يُصلي الليل كله فإذا أصبح سرق قال: سينهاه ما تقول، والمتأمل في عبادتنا عموماً يجد أنها بعيدة كل البعد عن المقاصد التي وُضعت من أجلها، مما جعل هذه العبادة ضعيفة الأثر في حياة الناس على مستوى العقيدة والأخلاق والسلوك والمعاملة، وهذا يقتضي منا أن نقف مع كل عبادة ومقاصدها التي وُضعت من أجلها،

حتى نُؤديها وفق هذه المقاصد، وهذا ما سنحاول أن نفعله مع الصيام، حتى يمكننا أن نُؤدي الصيام وفق مقاصده المحددة له، إذا عُدنا إلى القرآن الكريم وجدناه يحدد بكل وضوح الغرض والمقصد من صيام رمضان، ألا وهو تحقيق التقوى، كما دل على ذلك قوله تعالى: ...كتب عليكم الصيام....

وهذا المقصد الكبير من الصيام تندرج تحته مقاصد تفصيلية لازمة له، وإذا اجتمعت وتحققت فإنها توصل صاحبها إلى التقوى وغفران الذنوب لا محالة، وإن تعطلت لم تتحقق التقوى، فمن مقاصد الصيام التي أرادها الله سبحانه وتعالى، والتي توصل العبد إلى درجة التقوى، التوبة، وإن حاجة الإنسان إلى التوبة المتجددة حاجة ضرورية، وذلك بحكم طبيعته البشرية الخاطئة كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون، فإذا كان كل عبد خطاء أي كثير الخطأ كان لا بد له من صفة ملازمة له وهي أن يكون تواباً أي كثير التوبة ومتجددُ الرجوع إلى الله، وهذه الصفة أي التواب ليست بالسهل امتلاكها، وهي صفة محمودة، ولهذا مدح الله عبده داود لاتصافه بها فقال تعالى: نعم العبد إنه أواب أي تواب كثير التوبة والرجوع إلى الله، وبين الله سبحانه وتعالى، أنه يجب أهل التوبة قال تعالى: إن الله يحب التوابين، واعتبر الرسول صاحب التوبة خير الخطائين فقال: وخير الخطائين التوابون، ومن أهم مقاصد الصيام أنه جاء ليكسب العبد هذه الصفة العظيمة التي يحتاجها في مسيرة حياته المملوءة بالأخطاء والتعثرات.

فرمضان شهر ليس فقط ليتوب فيه العبد، وإنما شهر يتدرب فيه العبد على اكتساب صفة التواب، فمن المعاني التي من أجلها سمي شهر رمضان، أنه شهر ترمض فيه الذنوب وتحترق، وإذا كانت التوبة المطلوب منها مغفرة الذنوب كما صرح بذلك القرآن الكريم: يا أيها الذين توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فرمضان جعل لهذا الغرض بالذات، كما يتبين ذلك من خلال مجموعة من الأحاديث منها: قوله صلى الله عليه وسلم: من صام رمضان.. ومن قام رمضان... ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، فربط هذه الأعمال الكثيرة والمتكررة خلال الشهر بكامله بالمغفرة من الذنوب، القصد منه أن يشعر العبد بأنه مذنب، وأنه يحتاج إلى توبة مستمرة، وهذا التكرار اليومي من شأنه أن يربي العبد على صفة الإنابة المتجددة والتوبة المستمرة، حتى إذا خرج رمضان خرج الصائم بشحنة إيمانية، وكانت التوبة ملازمة له، فيكون الصائم من المتقين التوابين، ولكن عدم إدراك كثير من الناس لهذا البعد في رمضان جعل الكثير منهم يحرص التوبة في مجال رمضان فقط، فإذا خرج الشهر رجع العبد إلى أحواله السابقة، وغفل عن التوبة المستمرة، فيترك الفرائض والسنن والواجبات، ويرتكب المنهيات، ويفعل المحرمات والموبقات، فيهدم كل ما فعله في رمضان من الخيرات والقربات والمبرات.

ومن مقاصد الصيام تقوية الإرادة، شرع رمضان ليربي الإرادة في الإنسان وذلك من خلال ثلاثة أمور: أولها كفه عن الشهوات والملذات وعن المعاصي طيلة شهر بكامله، فلا شك أن العبد في هذه المدة، يتعلم كيف يزيك نفسه ويربيها على فعل الخير، وهذا يصدقه الواقع، نجد أناسا ضعاف الأبدان والأجسام، ولكنهم يعملون أعمالا لا يقوى عليها أقوىاء الأبدان، و يواظبون عليها، والسبب هو قوة إرادتهم النابعة عن قوة الإيمان في قلوبهم، وإذا كان هذا هو مقصد أساسي من مقاصد رمضان فالواجب على كل مسلم أن يحرص على تحقيق هذا المقصد في نفسه، وأن يسعى جاهدا لتقوية إرادته خلال هذا الشهر، ومن مقاصد الصيام، اتقاء المعاصي، وطهارة القلب من الغل والحقد والحسد والبغضاء، لقوله تعالى: ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا، فمن المعلوم بدهة أن من معاني التقوى اجتناب المعاصي. رمضان شرع صيامه ليربي العبد على الابتعاد عن المعاصي جملة وتفصيلا، وعلى طهارة القلب من سوء الأخلاق تحديدا، فرمضان يُعوّد العبد الصائم على ترك شهواته المباحة و مألوفاته طيلة شهر، وذلك حتى يكون على ترك الشهوات المحرمة عليه أقدر، وقد تضافرت أقوال الصحابة في هذا المعنى، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم ودع أذى الخادم، وليكن عليك وقار و سكينه يوم صيامك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء، وقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: إذا صمت فتحفظ ما استطعت.

خطبة الجمعة ليوم 27 فبراير 2026 م، يوم 9 رمضان 1447 هـ